



المصدر: الحياة

التاريخ: ٣ مارس ١٩٩١

مقدمات النظام العالمي الجديد

دارت طوال ٤٢ سنة حول محور واحد هو: احتواء الاتحاد السوفياني ومحاصرته فيما سمي تيسيطا «الحرب الباردة». وسقوط حائط برلين ونهاية الحرب الباردة كشفت للسيااسة الاميركية فجأة ان الحياة أصبحت موحشة من غير عدو يؤنس وحيتها ويمتص طاقتها. ففي حياة الدول، مثمما في حياة الأفراد، تصبح العداوات احيانا بنفس اهمية الصداقات في تشكيل السلوك والشخصية. ان العالم الذي كانت السياسة الاميركية ترى فيه شيوعيا عند كل فاصلة، أصبح فجأة عالما بلا شيوعيين. بلا اعداء، وأصبح السؤال هو: هل يمكن لدولة عظمى، وفي حالها هذه دولة عظمى وحيدة، ان تطبق للحياة بلا اعداء؟

وبالتسدرج، ولكن بطريقة خجولة ومنقطعة في المرحلة الاولى، بدأ الحديث يتواتر عن الحاجة الى نظام عالمي جديد. فالسياسة مارغريت ثاتشر رئيسة وزراء بريطانيا حينها، خرجت في حديث لها منشور في مجلة اميركية وهي تقر: «انني لا اعرف ابدا معنى هذا النظام العالمي الجديد الذي يتحدثون عنه»، لكن لتقرر لم يكن مطلوباً منها في اي وقت ان تفهم، فقد كان دورها هو ان تطيع، فقط فتمتد فقادت بريطانيا امبراطوريتها، وهي تطيع. ومن فرط طاعتها أصبحت تجد الفتنة في النظام الدولي الذي استقر تدريجاً بعد سنة ١٩٤٥.

■ في سنة ١٩٩٢ خرج بين لشميسون، وهو وزير سابق للخارجية الاميركية، بملاحظة موجزة سرعان ما سجلتها ملفات التاريخ كتلخيص لعصر كامل من التغيرات. فقد قل ان بريطانيا فقدت امبراطورية لكنها لم تعثر لنفسها، بعد، على دور في العالم. كان هذا بعد ١٧ سنة من الحرب العالمية الثانية التي خرجت منها بريطانيا منتصرة، وبعد ست سنوات من أزمة السويس التي خرجت منها مهزومة.

وفي سنة ١٩٩٠ أصبح على الولايات المتحدة ان تواجه اختباراً اخر من نوع مختلف تماماً، إذ جعلت ميخائيل غورباتشوف يفر من المسرح الدولي مذعوراً، مكتفياً بتصفيق غربي بحبي «حكيمته»، التي هي عملياً تسجيل لهزيمة الاتحاد السوفياني الكاملة في الحرب الباردة. وبلغ من ذعر غورباتشوف انه بعدما قرر سحب القوات السوفيانية من أوروبا الشرقية بدأ يتوسل الغرب لمساعدته على بناء شفق سكنية لهم في بلاده. اختار لهم الرجيل اولاً، ثم بدأ يبحث عن اماكن لايوائهم.

سجلت الولايات المتحدة، ان هزيمة كاملة للاتحاد السوفياني وانسحابه النهائي كقوة عظمى منافسة من المسرح الدولي، وأصبحت السياسة الاميركية، فجأة، في حال كاملة من الفراغ. قلل موارد الولايات المتحدة وافكارها وتصميماتها

محمود عوض *

التعاون بين هؤلاء، أو التناقض. سيبدأ التاريخ الجديد.

ربما من أجل هذا بالضبط أصبحت بريطانيا صاحبة مصلحة كبرى في أزمة الخليج التي فجرها الغزو العراقي للكويت في الثاني من آب (أغسطس) ١٩٩٠. فحينما التقى الرئيس جورج بوش رئيسة الوزراء البريطانية السابقة مارغريت ثاتشر في اليوم التالي كان مقترضا أن يكون مجرد لقاء احتفالي، فهي مدعوة من معهد «اسين» في ولاية كولورادو لتسلم جائزة، وجورج بوش تعهد ليلقي خطاباً عن نهاية الحرب الباردة يعرض فيه خطط حكومته لخفض حجم القوات المسلحة الأميركية تدريجاً بنسبة الربع. لكن سرعان ما تحول اللقاء الاحتفالي إلى اجتماع عمل موضوعه «أزمة الخليج» التي بدأت لتوها. إن عقدة السويس لدى بريطانيا لم تجد شفاعها إلا بحرب الفوكلاند ضد الأرجنتين في سنة ١٩٨٢. والآن عقدة فينتنام لدى الولايات المتحدة لن تجد شفاعها إلا في الخليج. شد حيلك يا جورج، فغورباتشوف منكفى على ظهره في البلطيق، وعلى بطنه في روسيا وأذربيجان، وستلهمه جائزة نوبل. لكن حلف شمال الأطلسي سيولد من جديد... أما ميثران؟ حسناً، الفرنسيون كما تعلم، سيسببون لك المتاعب حتى النهاية. لكن في لحظة المعركة، سيكونون طوع بئناك. هكذا جاءت مشورة ثاتشر.

ولم يصدق في تشخيص مارغريت ثاتشر أكثر من جزئه الأخير. فالرئيس فرنسوا ميثران حاول النفاذ في البداية بوجود درجة من الاستقلالية في سياسته عن الولايات المتحدة، وحينما ألفى خطابه أمام الجمعية العامة للأمم المتحدة في أيلول (سبتمبر) الماضي طرح مبادرة بدت لأول وهلة مختلفة بعض الشيء عن الموقف الأميركي الرسمي. وحينما أصدر مجلس الأمن الدولي القرار ٦٧٨ بتفويض الدول المعنية باستخدام كل الوسائل الضرورية، لضمان الانسحاب العراقي من الكويت بعد ١٥ كانون الثاني (يناير) ١٩٩١ طرح ميثران مبادرة غامضة في اللحظات الأخيرة لحل الأزمة سلمياً. لكن سرعان ما تبين أنه في اللحظة نفسها كان يوقع مع الولايات المتحدة بروتوكولاً سرياً بوضع القوات الفرنسية في الخليج تحت القيادة الأميركية. بروتوكول تم في الثامنة مساء الأربعاء ١٦ كانون الثاني (يناير) قبل

قطر سنوات الحرب الباردة كان محور السياسة الأميركية هو اخنوء السوفييت. وفي تلك الأثناء أصبحت المؤسسة الدولية التي تعارض الولايات المتحدة من خلالها تعبئة الحلفاء لهذا الإحتواء هي منظمة حلف شمال الأطلسي. وهنا أصبح ممكناً إعطاء بريطانيا دوراً فائضاً عن الحملة الأميركية، ومن خلال هذا الدور بدأت بريطانيا تتحدث عن «علاقة خاصة» لها مع الولايات المتحدة، وأصبح لها رادع نووي، وجيش في ألمانيا الغربية، وأسطول كبير في شمال المحيط الأطلسي.

لكن انتهاء الحرب الباردة جاء ليهده هذا كله بعاصفة. فمركز الثقل يتحول من حلف شمال الأطلسي كمنظمة عسكرية إلى السوق الأوروبية المشتركة كمنظمة اقتصادية، وأغلة توحيد ألمانيا يجعل مركز الثقل داخل هذه السوق ينضبط على سعر المارك الألماني. وحينما جربت بريطانيا في البداية أن تعارض الإسراع في الوحدة الألمانية اكتشفت أن الخريطة الأوروبية الجديدة يتم رسمها بعيداً عنها. سواء قبلتها هي أو رفضتها. بل إن «العلاقة الخاصة» بين بريطانيا والولايات المتحدة طوال أربعين سنة سابقة ازاحتها من الطريق «علاقة خاصة» تريدها الولايات المتحدة مع ألمانيا الموحدة الجديدة، حيث السياسة الأميركية تدخر البولة الجديدة لمهمات جسام في النصف الشرقي من أوروبا الذي تحرر لشوه من القبضة السوفياتية وأصبح مهماً ربطه بالغرب بسرعة. فخرجت جريدة بريطانية كبرى. هي «صانداي تايمز» تشخص حال بريطانيا في هذا الواقع الجديد بأنها «عزلة غير باهرة».

كان هذا في شباط (فبراير) ١٩٩٠. وبعدما جاء الإنهيار السياسي الكامل لميخائيل غورباتشوف ودولته العظمى السابقة بأسرع حتى مما تخيل الأميركيون أنفسهم، بدأ التخطيط لكيفية ملء هذا الفراغ المدي، في أوروبا أولاً، ومن بعدها العالم. وطوال سنوات الحرب الباردة اعتادت بريطانيا أن تلعب دور النابح المساعد للولايات المتحدة كقوة عظمى. لكن ابتداء من سنة ١٩٩٠ أصبح كل المعروض عليها هو أن تلعب دور للمساعد لقوة اقلية جديدة هي ألمانيا. وحتى هذا الدور الجديد غير مضمون، حيث بريطانيا هي الأفقر اقتصادياً بين أكبر أربع دول في أوروبا، فهي لا تأتي خلف ألمانيا بحسب، بل خلف فرنسا وإيطاليا أيضاً، وفي عالم ما بعد الحرب الباردة أصبح اللاعبون الكبار على مستوى العالم من الناحية الاقتصادية هم الولايات المتحدة واليابان وألمانيا، ومن

المتحدة ان تسجل انتصارها. هذا كان رأي الرئيس الأميركي السابق ريتشارد نيكسون في العام الماضي. والنظام العالمي الجديد يعني ان تصبح الولايات المتحدة عملياً رجل الشرطة العالمي بعد ان اصبحت هي وحدها القادرة عسكرياً على ذلك. لكن هنا توجد مشكلة كبرى، فحينما درس الاكاديمي الأميركي بول كينيدي تاريخ لارتفاع الامبراطوريات الكبرى وسقوطها في مؤلفه الشهير قبل ثلاث سنوات، كانت الخلاصة التي خرج بها هي ان الامبراطوريات ترتفع بطموحها وقدرتها، لكن سقوطها يبدأ في اللحظة التي تعجز فيها مواردها الاقتصادية عن مجاراة احتياجاتها العسكرية.

وفي انتخابات الرئاسة الأميركية الأخيرة التي فاز فيها جورج بوش، خرجت بعض الصحف الأميركية الكبرى تنصح كلا من المرشحين الديموقراطي والجمهوري للرئاسة بان يتوقف عن السخيرة السليبية من الآخر، وبدلاً من ذلك على كل منهما ان يقرأ هذا الكتاب اذا كان يريد حقاً ان يخرج اميركا من وظيفتها الكبرى، فاميركا التي خرجت من الحرب العالمية الثانية وهي تنتج وحدها ٥٢ في المئة من كل السلع والخدمات في العالم، اصبحت الآن اكبر دولة مدنية في التاريخ، ولولا ان الدول الغنية في هذا العالم تعطي حصة استثنائية لاميركا مقابل بولارات ورقية أميركية لا غطاء حقيقياً لها، لكان صندوق النقد الدولي أعلن منذ سنوات طويلة فرض وصايته على الاقتصاد الأميركي مثلهما يفعل مع كل الدول المستضعفة في الأرض.

وسواء قرأ الرئيس الأميركي جورج بوش ذلك الكتاب الشهير عن ارتفاع الامبراطوريات الكبرى وسقوطها او لم يقرأ، فان مفهومه العملي عن هذا النظام العالمي الجديد، يعني انه يدرك تماماً ما يريده بهذا النظام، وما يريده بسيط تماماً: فالولايات المتحدة لديها القدرة العسكرية، والآخرين، لديهم القدرة المالية، ومن عقد القرن بين الاثنين يمكن التوصل الى زيجة سعيدة وناجحة. ان الصيت والغنى يفتحان معاً بيوتاً سعيدة حول العالم آلاف المرات كل يوم، فلماذا لا تجرب السياسات الدولية الصيغة نفسها مرة كل نصف قرن؟

لكن المشكلة هنا اصبحت مزبوجة: فكثيرون من الأميركيين انفسهم لا يربون لنيلهم هذا النور حتى ولو بدا مفيداً له. كما ان هؤلاء الآخرين، من اصحاب القدرات المالية تجاوزوا سن القصور، وبدأوا يتعلمون علناً من استعمار الحياة داخل بيت الطاعة الأميركي، حتى ولو كان مكيف الهواء. وهذا جانب آخر من القصة، لانه حتى الزيجات السعيدة فيها دائماً من الدموع ما يهددها من الداخل.

• نائب رئيس تحرير جريدة «الخبر اليوم» المصرية.

ساعات من بدء الحرب الفعلية في اليوم التالي مباشرة. وحينما لعرض وزير دفاعه السابق بيار شوفينمان على المشاركة الفرنسية في تدمير العراق باعتباره تجاوزاً لقرارات مجلس الأمن، قبل ميتران استقالته على الفور، وبعدها انطلقت الطائرات الفرنسية الى داخل العراق. ومع الاسبوع الرابع للحرب كان وزراء دفاع الولايات المتحدة وبريطانيا وفرنسا يجتمعون معاً في واشنطن، فيما بدا كأنه مجلس الإدارة الفعلي للحرب، اول حرب صاخبة بعد انتهاء الحرب الباردة.

وفي ادارة تلك الحرب لم يكن المقصود ادارة القتال فقط، ولكن ما بعد القتال ايضاً. هكذا بدأت تتشكل على ارض الواقع أولى ملامح النظام الدولي الجديد، الذي جرت الإشارة اليه من قبل بشكل متقطع وفي ما يشبه لغة الشيفرة. فالرئيس الأميركي تحدث في اب الماضي اولاً عن ضرورة التحرك المسلح الى الخليج بغلاء عن «منط الحياة الأميركية»، وبعدها قال انه يرصد «خطأ فاصلاً في الرمال» لدعم للصالح الأميركية، ثم قال بعدها للمحاربين القدماء ان الأزمة تثبت انه «لا بديل - للغرب - عن القيادة الأميركية».

وأخيراً، قال جورج بوش في خطابه السنوي عن «حال الاتحاد» الذي ألقاه في ٢٩ كانون الثاني (يناير) للماضي: «ان امال الإنسانية تنتج البناء ودعا الى تحقيق الانتصار «من اجل السلام العالمي والعدالة»، الى ان قال انه: «من بين دول العالم فان الولايات المتحدة وحدها تملك من المستوى الاخلاقي ومن الامكانات ما يكفي لخلق نظام عالمي جديد».

هكذا حمل تعبير «النظام العالمي الجديد» اذن خاتم النسر الأميركي، بل وبصمة الدب السوفييتي ايضاً. فحينما خرج الرئيس السوفيياتي ميخائيل غورباتشوف مع الاسبوع الثالث للحرب في الخليج ليعلن في موسكو على استحياء ان «منطق العمليات العسكرية الأميركية - ضد العراق - يهدد بتجاوز تفويض المحدد من الامم المتحدة»، سرعان ما خرج جيمس بيكر وزير الخارجية الأميركي يفسر كلمات غورباتشوف قائلاً ان الرئيس السوفيياتي يمتص بتلك الكلمات قوى المعارضة داخل بلاده خصوصاً في القوات المسلحة وفي الجمهوريات الإسلامية. وعلى اي حال - هكذا قال جيمس بيكر - ميساطة متناهية - فان موسكو «اخطرتنا مسبقاً بهذه التصريحات» قبل ان يلقى بها غورباتشوف. لقد اقر الاتحاد السوفيياتي بهزيمته في الحرب الباردة، لكن لا يزال على الولايات